

المنهج البيوغرافي: استعمال السير الذاتية والحياتية في علم الاجتماع

فضيل دليو*

ملخص: تتميز المنهجية في علم الاجتماع خصوصاً والعلوم الاجتماعية عموماً بإعادة الاعتبار للمناهج الكيفية. وقد شمل هذا التجدد، المنهج البيوغرافي بتقنياته المختلفة. ويقدم هذا المقال عرضاً نقدياً لهذه المقاربة الكيفية بمختلف تقنياتها واستعمالاتها المتميزة في أمريكا، أوروبا والعالم العربي. فبعد تحديد المصطلحات، نظراً لتنوعها وندرة استعمالها في لغة علم الاجتماع العربية، تم استعراض أهم استعمالات المنهج البيوغرافي وتطوره، تبعاً لمختلف المقاربات النظرية والتخصصات والمواضيع ومجالات الدراسة. كما تم شرح كيفية صياغة سير الحياة ومعالجة إيجابيات وسلبيات استخدامها بتقنياتها المختلفة (دراسة الحالة، والسير المتعددة، والمتوازنة، والمتقاطعة...). وخلص المقال في النهاية إلى طرح آفاق تطبيق المنهج البيوغرافي، مثيراً بعض التساؤلات النظرية والمشكلات المنهجية التي قد تواجه محاولات تطبيقه مثل: مدى انسجام عناصر السير بين المتغيرات الذاتية والموضوعية وبين مختلف الروايات، والصعوبة المنهجية في التفرقة بين السير «بوصفها مرايا» ذاتية والسير «بوصفها نوافذ» مفتوحة، والمحدودية النظرية والمنهجية لسير المنحرفين والمهمشين الشائعة، على حساب سير الأشخاص العاديين؛ ومن ثم إشكالية التركيز على «من» يخص بالسيرة بدلاً من «كيف» و«لماذا».

تعددت في السنوات الأخيرة محاولات إعادة الاعتبار للمناهج الكيفية في الأوساط الأكاديمية الغربية، وتبعاً لذلك عند جامعيي بعض البلاد التابعة، كما استرجع في سياقها المنهج البيوغرافي أنفاسه الثلاثينية. وشمل هذا التجدد مجال علم الاجتماع كغيره من

* أستاذ (Professor) معهد علم الاجتماع، جامعة قسنطينة، الجزائر.

مجالات العلوم الاجتماعية الأخرى. فبعدما كان علم الاجتماع يركز على كل ما هو اجتماعي مهماشاً محاولات البناء الفردي للواقع الاجتماعي، وبعدما «رفض بقوة علماء الاجتماع أهمية علم الوراثة والعوامل الفردية (الفيزيولوجية والنفسية) في الحياة الاجتماعية للكائن الإنساني» (Banuelos, 1994, 17)، أصبحوا يهتمون بأحاسيس الفرد باعتباره إنساناً وبتصوراته للواقع المعيشي، فهو لم يعد مجرد دمية في مهب رياح البناء الاجتماعي والثقافي وصراع الطبقات ومستقبل التاريخ... بل فاعلاً اجتماعياً مهماً. وقد حظي بمثل هذا الاهتمام عبر بعض التوجهات النظرية الجديدة (مثل الظاهراتية والتفاعلية الرمزية وعلم اجتماع الجسم...) التي تحاول إعادة الاعتبار لأهمية البناء الفردي للواقع الاجتماعي وللسير الذاتية والحياتية عموماً⁽¹⁾.

وإذا كان من الصعب تفسير العلاقة بين ثنائية الفعل الفردي والبناء الاجتماعي وكذا محاولات التأليف بينهما (دليو، 1988)، فإن ذلك لا يقلل من الأهمية النسبية لكل مقاربة من المقاربات الثلاث. وفي ما يخص موضوع حديثنا فإن أهمية البيوغرافيا في الأوساط الأكاديمية الغربية أكدتها على الأقل مقاربتان: النزعة الفردية والنظريات الوسطى (Middle Range Theories) في علم الاجتماع. وفي شأن هذه الأخيرة يؤكد «رايت ميلز» أنه لا يمكن فهم البناء الاجتماعي بدون بيوغرافيا، لأن علم الاجتماع الحقيقي في رأيه هو عبارة عن الالتقاء بين البيوغرافيا والتاريخ (De Miguel, 1996: 9). ومع ذلك فما زال الشائع بين علماء الاجتماع اعتبار السير الذاتية والحياتية مظهرًا ثانويًا وهامشيًا لا يصلح إلا أمثلة تشخيصية أو تكميلية للتحليلات البنائية الأكثر عمقًا، هذا إذا لم تستنكر أصلاً. وأما تصورنا نحن فيقودنا إلى العمل بالاحتمالات الثلاثة (صلاحيتها للتحليل العميق، التكميلي فقط أو الاستغناء عنها تماماً، تبعاً لمدى مناسبتها وجديتها) وذلك نظراً لاقتناعنا بالأهمية العلمية والإصلاحية للتجارب الإنسانية، موضوع هذه الدراسات الكيفية، والتي قد تمكننا من الاستفادة منهجياً ومعرفياً من تجارب الآخرين ونظرتهم للواقع الاجتماعي بأنظمتهم القيمة، فنتجنب مآسيهم ونجدد نجاحاتهم. إذ نرى أن علم الاجتماع ليس بالضرورة علماً اختزالياً ولا هداماً ولا حتى حيادياً، كما يتصوره بعض الباحثين غرباً وشرقاً، بل قد يكون مدخلاً مهماً لفهم الحياة الاجتماعية وخدمة البشر من خلال الإفادة - في هذه الحالة - من سير الآخرين، وبخاصة إذا توخينا الصواب والمصادقية منهجياً (التمثيل والتقاطع والتعدد والتحري الموضوعي بالجرح والتعديل، الخ... كما سيأتي بيانه لاحقاً).

سنحاول في هذا المقام - من جهة - تقديم عرض لحال هذا المنهج بإيجابيات وسلبيات استعماله، ومن جهة أخرى عرض كيفية صياغة السير الذاتية والحياتية وآفاق تطبيقاتهما بشكوكهما النظرية ومشاكلهما المنهجية، وذلك في إطار الإحاطة

المعرفية بمستجدات التراث الإنساني في العلوم الاجتماعية بمختلف توجهاتها وبخاصة الشائع منها.

يتفق أنصار المنهج البيوگرافي في المقتضيات المعرفية لاستعماله، فهو في نظرهم ليس عبارة عن تقنية إمبيريقية جديدة بل يفترض مقارنة كيفية شاملة لممارسة علم اجتماعية متميزة على المستوى المعرفي، النظري والمنهجي. فهم يرفضون، من جهة، التصور الوضعي لعلم اجتماع شبيه بالعلوم الطبيعية، يعتبر الأفعال الاجتماعية مجرد معطيات والأفراد مجرد إخباريين (Informants) أو مستجوبين، والعلاقات الاجتماعية عبارة عن ارتباطات بين متغيرات. ومن جهة أخرى، يؤكدون على الذاتية مقابل الموضوعية، وعلى طموحهم وإرادتهم التأويلية مقابل الإرادة الإمبيريقية التحليلية للوضعيين. وأما تميزهم الثالث والأخير فيتمحور حول الحركية الزمنية المعبر عنها بإرادة فهم عملية التغير الاجتماعي مقابل ما يعتبرونه عجزاً واضحاً للوضعيين عن التعامل مع المتغير الزمني.

في مستوى النظرية، يضع الوضعيون كل البناءات النظرية، التي تفتقد إلى قاعدة إمبيريقية صلبة، محل شك، مما يفقر في نظر بعض علماء الاجتماع الخيال العلمي الاجتماعي الذي يفترض ملازمته للباحثين. إن الاستقراء الإمبيريقى الراديكالى للوضعيين يؤدي بهم إلى التقليل من شأن كل الطروحات النظرية التي لا تقوم على دعم إمبيريقى، ولم تخضع لحكم الاختبارات الإمبيريقية بتقنياتها القياسية والتحليلية. كما يؤخذ على هذا التصور قطعية (دغماتية) موقفه من تصور التطور العلمي التدريجي، الخطي والتراكمي، وتقديسه لمعايير التقنية مقابل ميله نحو الابتعاد عن منظور طبيعة موضوعه الأصلي: الكائن «الإنساني» وعلاقاته الاجتماعية. أما الانتقادات الموجهة للعمليات المنهجية فتتمحور أساساً حول طغيان اللجوء إلى التحكم والاستعمال المفرط لتقنياته، وهو ما يعتبره الكيفيون عاجزاً عن تحقيق معرفة عميقة عن المجتمع وتغيراته، لأنه يحصر السلوك الإنساني المعقد ودوافعه المتعددة في متغيرات مجردة، ويغفل العلاقة الجدلية بين الفعل الإنساني والبناء الاجتماعي.

ولتفادي ذلك يقترح أنصار المنظور النفسى التاريخى (مثل: تشييانسكى، ورايت ميلز، واليسار الجديد...) استعمال بعض المناهج الكيفية وعلى رأسها المنهج البيوگرافي والتاريخ أو السير الشفوية (Oral History).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البحوث الحديثة المعتمدة على المنهج البيوگرافي والتاريخ الشفوي، لا تمثل تياراً منهجياً فقط، بل حركة تصورية تجديدية متعددة المشارب⁽²⁾. ويقود أحد أقطابها حالياً ما يعرف في الغرب الأنغلو سكسونى باليسار

الجديد (New Left) بمجلاته المعروفة (New Left Review, Oral History Review, International Journal Of History Review) وبباحثين من تخصصات مختلفة (تاريخ، وعلم اجتماع، واثروبولوجيا، وأدب، وفولكلوريا حضرية...) وبتوجه جيوغرافي متزايد نحو الأدب والفن، وبإشراك الطلبة والعمال والشيوخ في البحث في إطار نظرة شعبية مجتمعة لعلم الاجتماع.

إن هذه الراديكالية التي تريد أن تنزل العالم الاجتماعي المترفع والمتنزه من عرشه تعتمد أساساً على «الشكية» مقابل «المعرفة الموضوعية» المقدسة المتحصل عليها عبر التكنوقراطية التكميمية، ولكنها قد تؤدي إلى الوقوع في تطرف آخر يقدر «ابتذال» علم الاجتماع ليحوّله إلى ممارسة ثقافية قمعية، بتجريده من أدنى موضوعية ممكنة، أو بتحويله شيئاً فشيئاً أدباً وفناً بل مجرد تقارير ذاتية شبه صحافية... وفي نظرنا فإن الطرحين يفقدان علم الاجتماع توازنه باعتباره علماً موضوعياً إنسانياً ذاتياً.

إن المشكل الأساسي الآخر ذا الطبيعة النظرية الذي يجب على أصحاب هذا التصور حله، يكمن في كيفية تجاوز كثافة وانطباعية عالم الفرد بحيث يمكن تعميم مختلف تصوراته بكيفية منتظمة، إذ - كما يقول «فراروتي» - (Ferrarrotti, 1989, 52): «إن الفرد لا يمكنه أن يعبر مباشرة عن المجتمع بصفة عامة، أو أن يعبر عنه بواسطة محيطه الاجتماعي المباشر، الذي ينتمي إلى جماعاته المحدودة». فمشكل الوساطات يتحول إذن إلى موضوع حرج لتجاوز التقديس الذاتي الملازم للمقاربة البيوغرافية.

لقد حاول علماء الاجتماع والاثروبولوجيا إيجاد حل علمي للمشكل المتمثل في الفجوة الموجودة بين القطبين المتناقضين: الفردية الذاتية والموضوعية المصطنعة، فالتقى بعضهم في وسط الطريق، ومنهم: «لويس» (Lewis, 1971, 471) الذي اقترح تطبيق «دراسة حالة» مكثفة على مستوى عائلي لتجاوز الفجوة بين القطبين الثقافي العام والفردى الخاص، و«بواربي وكلايبي - فيادون» (Poirier & Clapier- Valladon, 1980, 351-358) اللذان اقترحا المنهج «الإنثوبيوغرافي» لتجاوز التجربة الفردية للمبحوث، وإدماج النماذج الثقافية لجماعته من خلال رؤيته الخاصة ورؤى السير المحيطية المتوازية والمتقاطعة، وأخيراً «فراروتي» (Ferrarrotti, 1989, 52) الذي اقترح جعل الجماعة الأولية بطله المنهج البيوغرافي بدلا من الفرد. وبالفعل كان لمثل هذه الدعوات التأليفية، ولهذا النوع من التلاقي الوسطي بين الاثروبولوجيا وعلم الاجتماع صدى عمليا في مجال الدراسات الحضرية. وقد تجلّى ذلك من قبل في دراسات مدرسة شيكاغو التي تميزت خصوصا ببراغماتيها المليئة بالخيال والتي تسمح بتنظيم

الانطباعات والتصورات العابرة والجزئية للفاعلين الاجتماعيين، فلقد أنجز «شاو» (Shaw) و«بارك» (Park) وتلامذته عشرات الدراسات حول مواضيع مختلفة ومن منظورات منهجية متباينة، تخلو فيها من أي قطعة نظرية أو منهجية، ولجأوا إلى الجمع بين مقاربات إحصائية مثل: سجلات المؤسسات الأمنية والقضائية، والملاحظة بالمشاركة، واستجوابات السير الذاتية وعروضها طبعاً، ليتوصلوا أخيراً إلى تشكيل فسيفساء نظرية (Munoz, 1992, 12)، ومن هنا يمكن استنتاج أن ما يعتبر أكثر صلابة ومنطقية هو عدم الاكتفاء بالإسهامات الكلاسيكية التي تقتصر على جمع الشهادات البيوغرافية بعيداً عن أي إطار اجتماعي، بل اعتماد تلك التي تعمل على بناء تحليلهم للسير الفردية في إطار الجماعات المرجعية الأولى (جماعة الأسرة، والأقارب، والأصحاب، والأقلية العرقية أو الدينية، الخ).

المصطلح: بين الذبوع والدقة

أدت الاستعمالات المتعددة للمنهج البيوغرافي وكذا تعدد التقاليد الأكاديمية التي يعتمد عليها، إلى التعبير عنه بمصطلحات مختلفة صعبت من تحديد مفهومه. ولذا وجب عرض أهم المصطلحات المعبرة عنه في إطار الإجماع النسبي. إن المصطلحين الأكثر استعمالاً وذبوعاً والأقل دقة في الوقت نفسه، هما: البيوغرافيا والبيوغرافيا الذاتية (Auto/biography) اللذان استعملوا أولاً في التراث الأدبي الغربي قبل استعمالهما في مختلف فروع العلوم الإنسانية الأخرى. ويقابلهما عندنا مصطلحي السير والسير الذاتية المستنبطين من تراثنا الأدبي والديني. وأما الفرق الأساسي بين المصطلحين، فيكمن في كون الثاني يخص ترجمة سيرة حياة الكاتب نفسه، أي عرض الحياة الشخصية مربية بطريقة طبيعية من طرف المعني بالأمر نفسه بناء على دوافع خاصة وبارادة خاصة، في حين يختص الأول بعرض خارجي لحياة المعني بالأمر - حيا كان أو ميتاً - اعتماداً على مصادر وثائقية فقط أو بواسطة الجمع بين الوثائق والمقابلات مع المعني بالأمر أو مع أشخاص آخرين من محيطه. وتعتبر السيرة الذاتية (Autobiography) أقل استعمالاً في الأوساط الأكاديمية لأنها لا تسمح كثيراً بالتحكم في عملية التذكر، بشكوكها ونسيانها، مما يشكل في حد ذاته مؤشراً دالاً على كيفية مقارنة الكاتب مختلف مراحل حياته، ولكنه يقلل من فرص التحليل العميق لشخصيته، ويكثر من احتمالات التزوير وإخفاء الأحداث. أما في ما يخص تعريفهما الأكاديمي، العلم اجتماعي، فالشائع بين كثير من المتخصصين⁽³⁾ توقيده وجمعه في عبارة: «بناء الواقع الاجتماعي» عن طريق قصة أو ترجمة حياة عديد من أشخاص، بطلها واحد (De Miguel, 1996, 11) لأن المترجمين يعملون على تفصيل واقع حياة

شخصية داخل محيط اجتماعي معين، من وجهة نظر شخصية غالباً ما تكون غير بريئة ولا تامة. فقد تتعدد رواياتها من زمن لآخر كما قد تتعدد طرق فهمها وتأويلاتها. ولذا، فإن ما يفضل بحثه عادة هو «كيف» و«لماذا» حدث ذلك أكثر من «ماذا» حدث، لأن الأفعال عبارة عن أحداث فردية ذات أهمية محدودة بخلاف الدوافع والتبريرات والتفسيرات والأحكام والقيم والأهداف... المتحكمة في كيفية حدوث الأفعال وفي أسبابها.

هناك مصطلح ثالث: (Life History)، أتى من حقل الأنثروبولوجيا وذاع استعماله باسم «دراسة الحالة» أو (Histoire de vie)، وله معنى السيرة الحياتية (Biography) ولكن مع اشتراط مطلق لوجود المستجوب أو الإخباري وحدث لقاء وتفاعل بينه وبين الباحث.

وبما أن المصطلحات الثلاثة ليست رائجة في لغة علم الاجتماع العربية، فمن الأفضل تثبيت المصطلحين الأدبيين: السير الحياتية والسير الذاتية، أو اقتراح مصطلحات أخرى مثل: قصة الحياة والتراجم والتاريخ الشخصي أو الذاتي وتاريخ السير والوثائق الشخصية والسجلات الشخصية... أو اعتماد المصطلح الأجنبي الكلاسيكي بأحرف عربية: البيوغرافيا والبيوغرافيا الذاتية، ونترك لفعل الممارسة والزمن الفصل في تثبيت أصلها أو أكثرها ذيوياً⁽⁴⁾.

استعمالات المنهج البيوغرافي

الهدف الرئيس للعلوم الاجتماعية هو الوصول إلى تعميمات عقلية وقواعد عامة عن الواقع، وهو ما أدى بباحثيها إلى الميل أكثر فأكثر، وبتأثير من العلوم الطبيعية أصلاً، نحو وضعية «تشيئية» (Reification) تهمل التجارب الشخصية والتصورات الفردية المكونة عن المجتمع، وذلك بالرغم مما هو معروف عن الأنظمة الاجتماعية والثقافية من اشتغال تركيبتها وبنيتها على عوامل عدة، منها التجارب الواعية لفاعليها الاجتماعيين عن طريق عمليات معرفية وتفاعلية. وليس معنى هذا أنه يجب التخلي عن التوجه العلم اجتماعي السائد لصالح النظرة الإنسانية النسبية، بل التخلي عن الاعتقاد بأن كل ما هو غير قابل للتجريد والقياس أو الاختزال في مفاهيم نظرية ومجردة غير موجود أو غير مهم، بمعنى أن العلوم الاجتماعية بحكم خصائص موضوع دراستها (الإنسان)، لا يمكنها التخلي عن هذه العلاقة الجدلية بين رغبتها في التفسير النظامي والتعميمي وضرورة قبولها إنسانية موضوع دراستها المعقد والنسبي.

إن المنهج البيوغرافي - بتقنياته الخاصة بالسير المتعددة - قد يهتم بموضوع مهني واحد، كما يمكن تطبيقه أيضاً في دراسة أي تشكيلة اجتماعية أخرى ذات أبعاد

ديموغرافية محدودة (حي حضري، قرية صغيرة، جمعية خيرية....) فالفكرة الأساسية للعملية تتمثل في العمل على توجيه سير التجارب الشخصية نحو نقطة التقاء مركزية ونقطة اهتمام مركزي وموضوع مشترك، يفترض أن يكون المبحوثون أعضاء مشاركون فيه وملاحظين خارجيين في الوقت ذاته، مثل موضوع التغير الاجتماعي في قرية ما، وتجربة المهاجرين، وتأسيس حزب سياسي ما، وتجربة ممارسة إعلامية في بلد ما... إن هذا الالتقاء يحدث بالضرورة بعضاً من التشبع (Saturation) المعلوماتي، لأنه يسمح لنا بفرز الخصائص الذاتية الملازمة للمبحوثين عن العناصر المشتركة للظاهرة الاجتماعية. أما المسار التاريخي لاستعمال السير والتراجم بمختلف أنواعها في العلوم الاجتماعية، واعتمادها نقطة التقاء بين علم الاجتماع والتحليل النفسي فأمر تعود بدايته إلى عشرينيات هذا القرن، وذلك مع ذبوع مؤلف «الفلاح البولندي» (The Polish peasant) لـ «توماس» و«زنانيكي»، ونشر أعمال مدرسة شيكاغو⁽⁵⁾ حينما بدأ استعمال مصطلح (Life Story) للتعبير عن السير الذاتية تحديداً، التي قد تنشر معدلة أو من دون أدنى تعديل لدعم قوتها بوصفها شاهداً واقعياً، ثم تبعه نوع من التساهل والخلط بين استعمال المصطلحين (السير/ الذاتية) إلى أن حدث بعد السبعينيات شبه إجماع حول اقتراح عالم الاجتماع الأمريكي (Denzin) المميز بين المصطلحين، بحيث أصبح مصطلح (Life Story) بالفرنسية (Récit de vie) يشير إلى ترجمة حياة الكاتب بنفسه، بينما يشير مصطلح (Life History) إلى «دراسة حالة» شخص معين، والتي لا تتضمن سيرته الذاتية (Life Story) فقط بل أية معلومة أو وثيقة إضافية (الملف الصحي والقضائي، والاختبارات النفسية، وشهادات الأقارب، الخ) تسمح بإعادة بناء سيرته بأكبر قدر ممكن من الاستفاضة والموضوعية (Bertaux, 1980, 200). وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأجزاء التالية من هذا العمل، والتي تتصل باستعمالات السير الذاتية والحياتية وكيفية صياغتها، تتعلق أساساً بأداء «دراسة الحالة» (Life History).

إذا كانت بدايات استعمال السير الذاتية اهتمت أكثر بالطابع النفسي للظواهر الاجتماعية بخاصة، ومنها الانحراف، فإن البحوث الحالية تتميز بتعدد توجهاتها النظرية، فقلد أعد برتو عشرين بحثاً⁽⁶⁾ خاصاً بالمقاربة البيوگرافية قدموا للمؤتمر العاشر لعلم الاجتماع عام 1978 (Bertaux, 1980, 202-203). وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن الأنثروبولوجيين - حسب كلوكهن - استعملوا الوثائق الشخصية أكثر من الاقتصاديين وعلماء الاجتماع، فاستعمال البيوگرافيا، في رأيه، أقدم حتى من الأنثروبولوجيا الاجتماعية نفسها، نتيجة عدم تحول مذكرات الأنثروبولوجيين

الميدانية إلى سير حياتية قابلة للنشر (79, 1945, Kluckhohn). إن أصل هذا النوع من البحوث الذي يمكن تسميته بـ«البيوغرافيا الاثنية»، يمكن إرجاعه إلى قبيل منتصف القرن التاسع عشر⁽⁷⁾.

إيجابيات استعمال السير الذاتية وسلبياتها: إن الجدل القائم حول السير الذاتية في العلوم الاجتماعية يحول هذه الأخيرة إلى عُملة ذات وجهين: بالنسبة لعلم الاجتماع الكيفي يتحول هذا المنهج إلى أحد معالم الطرح المعرفي الذي ينبغي بصفة جذرية طروحات الوضعيين. وبالنسبة للتيارات المنحدرة من علم الاجتماع الكمي فإن هذه المناهج مشكوك فيها أصلاً ويفضل إقصاؤها.

للمنهج البيوغرافي في إطار المقاربات المنهجية الكيفية خصائص عدة يتميز بها عن التقنيات والوسائل الميدانية الأخرى، أهمها أنه يسمح في المراحل الأولية لأي بحث اجتماعي بصياغة الفروض، ويدخلنا بعمق في علم العلاقات الاجتماعية الأولية، إذ عن طريق السيرة الذاتية يمكننا تحويل بؤرة اهتمامنا بسهولة نحو العلاقات العائلية أو نحو نموذج تشكل علاقات التنشئة الاجتماعية (الشلة، وجماعة الرفاق، والحي، والجيران، والجمعيات...) أو نحو العلاقات بين رفقاء العمل (المهنية وغير المهنية). كما أن هذا المنهج يمكننا من التحكم شبه الكلي في المتغيرات التي تفسر سلوك الفرد داخل جماعته الأولية، ويمكن ممارسة هذا التحكم ليس فقط عن طريق الترجمة الذاتية لسيرة حياة الكاتب بل يمكن تكملة ذلك بتصريحات الأشخاص المكونين لمحيطه الاجتماعي المباشر باستعمال السير الذاتية المتقاطعة. وهو يغنينا عن جل البيانات المحتملة التي يمكن تحصيلها عن طريق الاستبيان، والمقابلة أو أي تقنية ميدانية أخرى (باستثناء الملاحظة بالمشاركة طبعاً). نظراً للدقة والتفصيل اللذين ترصد بهما التجارب الحياتية، وتقييمات الفرد وتصورات الكلية عن الكون والحياة عموماً. هذا فضلاً عن أنه، وفي دراسات التغير الاجتماعي، تعتبر السيرة الذاتية أكثر الوسائل صلاحية لمعرفة أثر التحولات وتقويمها، وترتيبها وأهميتها في الحياة اليومية للفرد: لجماعته الأولية ولمحيطه الاجتماعي المباشر، إن هذا المنهج يسمح لنا بالتحكم في التصورات النظرية والكلية (ماكرو)، لأنها توفر ما يقابلها من نظرة شخصية وجزئية. وهو يظهر لنا عروضاً طولية لعوالم خاصة، في حين أن استعمال السير الذاتية المتوازية، إذا كانت ممثلة لمجتمع تحليلنا، تصلح بديلاً للاستبيان أو المقابلات.

ومع ذلك، فليس كل شيء إيجابياً في ممارسة المنهج البيوغرافي، بل توجد سلسلة من السلبيات أو العيوب الناتجة أساساً عن صعوبات تطبيق تقنية الاستبيان وجمع المعلومات وكذا عن الاستعمال اللاحق لهذه المادة. ومن أهم هذه السلبيات، أن للسير الذاتية هدفاً واضحاً تكتب من أجله، يستوجب من الباحث التساؤل عنه،

فيفترض عادة وجود مسألة نظرية ظاهرة أو مستترة يرغب اكتشافها وتحليلها وتفسيرها وفهمها. ومن المفروض كذلك أن هذه المسألة النظرية المستهدفة ليست هي الشخص المبحوث، لأن سيرته ليست إلا مجرد نموذج لشيء أعم وأهم. فصاحب السيرة عادة ما يتحول إلى شخص يمثل نموذجاً: المهاجر، المدمن، المنحرف، النابغة أو السجين،... الخ. فالأمر لا يتعلق بإعطاء معنى لحياته الشخصية بل لحياة هذا النوع من الأشخاص الذين يفترض أنه يمثلهم. وبهذا المعنى فإن علم الاجتماع الكيفي لا يختلف كثيراً عن علم الاجتماع الكمي: استعمال الأفراد لفهم بنية المجتمع والعمليات الاجتماعية. وثمة سلبية أخرى تكمن في الصعوبة العملية، التي قد تكون أحياناً حادة جداً، في الحصول على «إخباريين» جيدين، مستعدين للتعاون ولديهم سير جيدة للدراسة، كما تبرز صعوبة تكملة كثير من السير الذاتية بعد الشروع فيها، وذلك إما بسبب تعب المبحوث، أو مشاكل متعلقة بالباحث أو بأي عارض داخلي أو خارجي آخر، كما تبرز صعوبة التحكم في المعلومات المجمعة من السير الذاتية إذا لم تدعم باستعمال الملاحظة بالمشاركة، بالسير المتقاطعة (مع بعض عناصر المحيط الاجتماعي للمبحوث)، أو على الأقل بمعاينات تجريبية أخرى عن طريق إجراء مقابلات مع أشخاص آخرين للتحقق من صدق نقاط معينة وردت في السير الذاتية.

كما أن هناك صعوبة منهجية تتعلق بتحديد عدد السير الضروري لبناء بحث بيوغرافي ذي مصداقية علمية. فالملاحظ في الأدب المتخصص - حسب «برتو» - وجود اختلاف كبير (من سيرة واحدة إلى مئات السير)، بحيث نجد أن بعض البحوث اعتمدت على رواية بيوغرافية واحدة⁽⁸⁾، تقابلها بحوث شملت عشرات السير المستخرجة من الوسط الاجتماعي نفسه⁽⁹⁾. وبينهما استطلاعات اعتمدت على بعض السير فقط⁽¹⁰⁾ (Bertaux, 1980, 205-206). إن هذا الاختلاف لا يمكن حسمه (بتحديد حد عيني أدنى: 01، 05، 10، 20 حالة....) لأنه من جهة مرتبط بالطبيعة النسبية لهذا النوع من الدراسات الكيفية ومن جهة أخرى بطبيعة موضوع البحث والهدف منه.

إن أحد المزالق الخطيرة التي قد يقع فيها بعض مستعملي هذا المنهج هو الاعتقاد بأن السيرة الذاتية تكفي وحدها، ومن ثم فهي تغني عن أي تحليل في العمق للمادة المجمعة، أو على نقيض ذلك، الاعتقاد بتقصيرها في وصف الواقع ومن ثم بضرورة استكمال الوصف شخصياً، فيتجه بعضهم إلى إعادة تشكيل الواقع الاجتماعي حسب تقديرهم الشخصي متجاوزين العرض البيوغرافي. وإذا لم يصل هذا التدخل إلى حد الإبداع فإنه قد يتم عن طريق إعادة تنظيم السيرة بتغيير بنيتها، وحذف بعض الفقرات والتكرارات، والاختيار بين عدة تفسيرات للحدث نفسه، وتجميل لغتها، وتصحيح

أسلوبها، والفصل في النقاط الغامضة والتعبيرات المشتبهة، وحذف بعض الشخصيات التي قد تظهر لأول وهلة غير مهمة... الخ. وقد يقدم الباحث السير «كما هي» (وهو أمر نادر) وقد تختفي تعليقاته في النص النهائي، ومع ذلك فنحن نعلم أن الأسئلة غالباً ليست حيادية: فهي عادة ما تفترض إضفاء الشرعية أو اللاشرعية على ما يعرض في السير (إجازته أو استنكاره) وتقود العرض نحو أحداث وشروح متوقعة أو محبذة، الخ. ولهذا عادة ما ينعت استعمال المنهج البيوغرافي «بالذاتية المزدوجة»: ذاتية الراوي (بأحداثها الموضوعية، الخيالية والمزورة) وذاتية الباحث (عند تنظيمه، وتصحيحه وإخراجه للسير).

إن صبر الباحث المستعين بهذا المنهج معرض للنفاذ أكثر منه في كثير من الحالات الأخرى، وذلك بسبب البطء أو التردد اللذين قد يلزمان المبحوث في مثل هذه الحالات، ومن ثم فهو قد يشكل ضغطاً في غير محله على المبحوث، أو في أسوأ الحالات، توجيهها مفرطاً له، مما قد يقضي نهائياً على مصداقية المنهج. ومعلوم أن هناك خلافاً كبيراً حول قضية «التوجيه»، الذي يتراوح بين «تحررية» المقاربة الإثنوغرافية، و«توجيهية» المقاربة النفسية الاجتماعية و«نسبية» المقاربة التكاملية التي تخضع الأمر لتنوع مواضع البحث ومعلوماته (عامة / خاصة) ولطبيعة مختلف مراحلها (من التمهيدي إلى الختامي). وفي المقابل، تظهر خطورة الانبهار أو الانخداع الناتج عن الحصول على رواية جيدة للسيرة الذاتية، والتي قد تقوم بدور «الشجرة التي تمنعنا من رؤية الغابة». إذ غالباً ما لا تكون القصة الجيدة هي الأصدق ولا الأكثر تمثيلاً. فإذا لم يكن الهدف الظاهر للبحث هو أصلاً تكوين سيناريو لسيرة ذاتية، فإن المقياس الرئيس لاختيار الروايات البيوغرافية المعدة للتحليل هو توافقها مع مقياسي الصدق (التوافق مع الأهداف الموضوعية للبحث والتمثيل (التناسب مع نوع اجتماعي محدد مسبقاً). ومع ذلك يبقى مشكل مصداقية العروض الشفوية أو الكتابية للمبحوث مطروحاً بحدّة، إذ كيف تتأكد من صدقه مع العلم أنه قد يجانب الحقيقة عن قصد أو عن غير قصد، بسبب النسيان أو سوء التقدير، مما قد يجبرنا على البحث والتحري بالرجوع إلى التحليل المنهجي والعلمي لسيرة الراوي، ولخلفياته المتعددة ولدوافع روايته ومضامينها. كما تعتبر الحالة العكسية للعنصر السابق والمتمثلة في المبالغة في إساءة الظن واتخاذ موقف نقدي مسبق من المبحوث، أي الشك بانتظام في مصداقية أقواله، مضرّة جداً: إن هذا الموقف قد يقضي على مشروع البحث وقد يؤدي إلى وضع مفرط في التوجيه.

ويمكن أكبر خطر قد يهدد استعمال السير الذاتية في تقديس المنهج البيوغرافي؛ أي الاعتقاد بأن الحصول على بعض السير الذاتية الجيدة يضمن لنا توفير كل

المعطيات الضرورية للقيام بتحليل جيد، والوصول إلى نتائج صحيحة حول مشكلة اجتماعية معينة. فلا يجب إذن المبالغة في تقدير ما قد يقدمه لنا المنهج البيوغرافي بأساليبه المختلفة والاستغناء عن استعمال المناهج الأخرى لأنه بالرغم من أهمية هذا المنهج في أقوى صورهِ (السير المتعددة: المتوازية والمتقاطعة) التي تتيح المقارنة، فإن بعض الباحثين - ومنهم Bastide - يعتبرها صورا خيالية «لأننا إذا كنا بصدد مجتمع تعددي من حيث المتغيرات فإن تشابه هذه الأخيرة لا يمنع وجود اختلاف بين وزن كل حالة ومعناها (Morin 1980, 238).

وتجدر الإشارة إلى أن استخدام السير الذاتية، الحياتية أو أي نوع من الوثائق الشخصية الأخرى وتحليلها الكيفي قد يستدعي وسائل أكثر ومجهودات أكبر من المعالجات الكمية، مع عدم اختلاف النتائج التي نصل إليها، فقد أثبتت إحدى أبرز الدراسات المنهجية المقارنة بين المقاربتين، قام بها «ستوفر» (Stouffer, 1930) في إطار إنجازهِ لرسالة دكتوراه خصت دراسة اتجاهات الطلبة نحو شرب الخمر في جامعة شيكاغو، أثبتت أن المعالجة الإحصائية توفر الجهد، وأن الوثائق الشخصية تعد مضيعة للوقت لأن الاختبارات الكمية والاستمارات النموذجية تغنيها عنها بحكم سهولة إدارتها وتحليلها وتفسيرها (Munoz, 1992, 35-36)، وهو ما أكدته انتقادات «بلومر» (Blumer, 1939) لأعمال «توماس» و«زنانيكى» والخاصة بعدم ارتباطها النظري بموادها الإمبريقية من جهة وبضخامة حجمها (2250 صفحة) وظيفية نتائجها وضعفها من جهة أخرى، ومن ثم محدودية استعمال «الوثائق الإنسانية» كمواد اختبارية لأهداف علمية (Ferrarrotti, 1980, 239-240).

أهم استعمالات السير الحياتية: من أهم أهداف الباحث الاجتماعي الذي يريد استعمال السير الحياتية، الحصول على أحسن الظروف الملائمة لتطبيق منهج بحثه. وهو أمر ليس بالهين، لأنه يستوجب الحصول على مبحوث جيد، مندمج في المحيط الاجتماعي الذي نريد بحثه، وصاحب قصة بيوغرافية جيدة. كما يستوجب أن تكون رواية سيرته مهمة وكاملة، وهو أمر خاضع كليا لخصائص المبحوث المختار: عقلاني وطبيعي وصريح وواضح في كلامه ويُدْرَج في حديثه أحداثاً لطيفة وظريفة ويتميز بالنقد الذاتي وبعُد النظر، كما يكون منتظما ومستعدا للتعاون حتى النهاية. بدون هذه المستلزمات، يكون من الصعب على الباحث الشروع في تجريب هذا النوع من الوثائق العلمية.

إن السيرة الحياتية، كما أشرنا من قبل، تعني قصة السيرة الذاتية التي يحصل عليها الباحث عن طريق المقابلات المتتالية، بهدف إظهار الشهادة الذاتية لشخص ما،

متضمنة كل الأحداث والتقييمات التي تعني حياة الشخص نفسه. ففي مثل هذه السير يعتبر الباحث مجرد دافع أو حاث على العرض، كاتبه المسؤول عن «تنقيحه» في ما يخص تنظيم المعلومات (التي حصل عليها في مختلف المقابلات) وكذا على حث المبحوث على تغطية الفراغات الإخبارية التي قد ينساها. وأما في مرحلة نشر السيرة فيمكن للباحث - حسب الظروف - إدخال «رئوس» بعدية على النص بهدف تقليصه (بحذف التكرارات مثلاً) وضبط خصائصه ومميزاته اللفظية والنحوية: علامات الوقف، وتشخيص التأكيدات، والشكوك والصمت وكذا المميزات الصوتية والتركيبية للغة المبحوث... كل ذلك يعني أن نشر السيرة الحياتية يفترض توافر شروط علمية ونصية وأخلاقية وأدبية مناسبة. ومن جهة أخرى فقد تتيح بعض الظروف الخاصة العثور على وثائق شخصية قد تكون مفيدة لتحليل مجال دراسي معين. وهو ما حدث لـ «ألبرت» (Allport, 1965) في مؤلفه (Letters from Jenny)، الذي اعتمد فيه على الرسائل الشخصية للسيدة «جيني» (Munoz, 1992, 48). إن الحصول على الوثائق الشخصية (مذكرات، ورسائل، وسير ذاتية...) مع رخصة استعمالها بغرض النشر، ليس بالأمر الهين، وبخاصة في بلداننا العربية الإسلامية، إلا أن هذا لا ينفي وجود مذكرات، تراجم وسير ذاتية شهيرة نشرت منذ عشرات السنين («أنا» لعباس محمود العقاد، ومذكرات شاهد القرن» لمالك بن نبي...) ولكنها لم تستغل، حسب علمنا، من طرف علماء الاجتماع أو علماء النفس الاجتماعي. وقد تستعمل السير الحياتية بشكل فردي كدراسة حالة محددة أو بشكل جماعي في حالة السير المتعددة (المتقاطعة أو المتوازية).

السير الذاتية بوصفها «دراسة حالة»: إن دراسة حالة واحدة قد تصلح كتحليل، في المرحلة الأولى للمشروع، لتمهيد الطريق، واقتراح فروض وللغوص بعمق في تحليل حالة معينة. وتخضع قيمة معلومات «دراسة الحالة ودلالاتها لـ «المسافة» النسبية بين مركز الباحث وخصوصية السير المسجلة. إن القدرة الاستظهارية للعرض البيوغرافي لا تغوص بنا فقط في أحداث محددة بل تطلعنا على الأنظمة القيمية للمجتمع وتساعدنا على فهم الحدود المقامة حول السلوك الفردي. ويتضح ذلك مثلاً من خلال العرض البيوغرافي لزوجات فلاح كوبي همشت بعد تطبيقها (Watson, 1976): فرغم عدم تمثيله لمسارات معظم زوجات الفلاحين الكوبيين، فإنه يسمح بإثراء العملية التحليلية والتفسيرية لمجتمع الفلاحين الكوبيين بعدد كبير من الفروض الجديدة والمفيدة حول الضبط الاجتماعي، والتمهيش، والقيم الاجتماعية... في مراحل لاحقة من البحث تخص هذا المجتمع المحلي نفسه (Munoz, 1992, 50).

إن دراسة الحالة الواحدة قد تستعمل بوصفها محوراً أو منتجاً للفروض، إلا أنها في أغلب الأحيان تستعمل بوصفها خطوة أولى نحو دراسة تعتمد على تراكم عدد من

العروض البيوغرافية، لكي تعطي لهذه التقنية إمكانية الوفاء بمستلزمات التمثيل التي يتطلبها البحث العلمي. ولكن هناك من يشذ عن هذا الاتجاه مثل عالم النفس الأمريكي «ألبرت» الذي دافع لسنوات طويلة عن المنهج «الأيديوغرافي» القائم على دراسة حالات بيوغرافية «مكتفية ذاتياً»، معبراً عن قمة هذا التوجه في عمله سابق الذكر. إن الحجة الأساسية لـ «ألبرت» تكمن في كون هدف عالم النفس الاجتماعي يتمثل في العمل على اكتشاف القواعد العامة أو النماذج القابلة للتعميم التي قد تتضمنها كل بيوغرافيا خاصة، والتي لا يمكن استنباطها من نظريات علم النفس المتوفرة والمعتمدة على مؤشرات أو متغيرات عامة تخص الكائن الإنساني. فموقفه كان رافضاً لحتمية التنبؤ بالسلوك الإنساني انطلاقاً من افتراضات قائمة على الإحصاء والتنميط السلوكي.

هناك استعمال آخر لـ «دراسة الحالة»، قد يظهر في المرحلة الأخيرة من البحث، وذلك عندما يتعلق الأمر بتشخيص النظرية بواسطة مادة مدعمة لنتائج العمل. ويعتبر عمل «شاو» (Shaw 1966) الخاص بمسيرة مراهق منحرف من مدينة شيكاغو، أحد النماذج الممثلة لهذا النوع من الاستعمال. وفي حقيقة الأمر فإن هذا الاستعمال شائع كثيراً وبخاصة في مستويات أدنى من تشخيص النظريات، وهو يندرج ضمن الوظائف التديمية - سالفة الذكر - المثيرة لنتائج البحوث الكمية.

تقنية السير الذاتية المتعددة: لهذه التقنية استعمالان أساسيان هما: السير المتوازية والسير المتقاطعة. وتستعمل السير المتوازية، باعتبارها نوعاً من السير الذاتية، في دراسة الوحدات الاجتماعية الكبيرة (الفلاحين، والحرفيين، والمتعطلين، والمتفوقين في المدارس، ورياضيي النخبة، والمدمنين على الخمر أو المخدرات،...) وبعد قراءة نصوص هذه السير أكثر موضوعية، لافتقارها للمكون الذاتي والقراءة الداخلية القائمة على الدوافع والتي يحاول فيها المحلل أساساً إفهام القارئ أن تراكم عينة كبيرة من القصص البيوغرافية يسمح بإجراء مقارنات وتصنيفات للمبحوثين، أي القيام بتعميمات تخص مجالاً معرفياً معيناً.

والباحثون الذين يستعملون المنهج البيوغرافي بوصفه شكلاً من أشكال الاستبيان العام ينطلقون من التطبيق الظاهر أو الضمني لسلسلة من العمليات يمكن حصر أهمها تبعاً لـ «تشبانسكي» (Szczepanski, 1978) و«برتو وبرتو» (Bertaux & Bertaux, 1980) في ست عمليات: التحليل النمطي، وتحليل المضمون، ومنهج التمثيل أو النمذجة، والمنهج البنائي، ومنهج التشبع المعلوماتي والمنهج الإحصائي (Munoz, 1992, 52-55). ويتمثل التحليل النمطي في تقديم أنواع محددة من الشخصيات وأنماط سلوكية تبرز من خلال دراسة مجموعات عدة. إن مادة السير الذاتية تخضع

للتوزيع حسب مختلف الأصناف ولترتيب نوعي تصنيفي للواقع الموصوف (مختلف مراحل تعلم الحرف، والأجيال المختلفة من المتعلمين...). أما تحليل المضمون فيتمثل في تطبيق المناهج المشتقة من التحليل الصحفي والدعائي على المواد البيوغرافية. وهي تقنية جديّة لمعاينة مواقف المبحوثين واتجاهاتهم، إذ يمكن القيام بمعالجة إحصائية لهذا التحليل لتوفير قراءة أوضح لبعض العوامل التي قد تكون مهمة بالنسبة لتحليلنا للسير الذاتية. ويتمثل منهج التمثيل أو النمذجة، أساساً، في وضع بعض الفروض بوساطة أمثلة مختارة مستخرجة من سلسلة من قصص السير الذاتية، أي محاولة الباحث تأكيد موقفه النظري الشخصي عن طريق القصص البيوغرافية. وبدهي أن تكون القيمة العلمية لهذا النوع من البناء، في الغالب، متواضعة ويعاب عليها بعض التصنع والنقص الواضح في العناصر النقدية، وذلك بالرغم من إمكانية أن تكون الفروض النظرية المصاغة بهذه الطريقة مناسبة جداً. وفي المقابل، نجد أن المنهج البنائي يتمثل في دراسة أكبر عدد ممكن من السير الذاتية انطلاقاً من إشكالية محددة بوضوح، معتمداً في معالجتها على مرجعية نظرية واضحة. وفي هذا الإطار، فإن الوصف الوارد في هذه السير يتحول إلى «مسارات» مشكلة للصورة العامة للظواهر المدروسة. وهنا يقوم حدس الباحث وبديته بدور توجيهي أساسي في اختيار الخصائص الإمبريقية المدعمة للفروض المصاغة مسبقاً وكذا في صياغة فروض جديدة مستقراة مما استجد بوضوح من السير الذاتية. إن هذا المنهج، بخلاف سابقه، يقيم علاقة جدلية بين المسلمات النظرية القبلية والوقائع الواردة في السير الذاتية. أما منهج التشبع المعلوماتي فيتضمن أساساً في التجميع التراكمي لسير ذاتية متعلقة بأفراد ينتمون للقطاع نفسه (المهني، التعليمي...)، بحيث نقوم تباعاً بمقارنة كل سيرة بالتي تليها مستخرجين كل العناصر المتطابقة، ولا نتوقف حتى نستنفد العناصر البنائية الجديدة (بعد شعورنا بأننا لن نتعلم أي شيء جديد متعلق بموضوع البحث)؛ أي أن الهدف من العملية يكمن في بناء سيرة واحدة انطلاقاً من سير عدة، مختلفة، آخذين بعين الاعتبار التنوع الأقصى للمبحوثين، وأن عملية التشبع لا تتم على مستوى الملاحظة بقدر ما تتم على مستوى تمثيلها لما يتضح تدريجياً عند الباحث من مختلف محاور موضوع بحثه.

وتعتبر عملية التشبع هذه ضماناً تقريبياً للمصادقية العلمية لخطوة ملاحظة الانتظامات الإمبريقية عند وضع الملامح البنائية للسير، في حين أن المنهج الإحصائي قد يستعمل بغية تحليل دقيق للعلاقة بين بعض الخصائص الاجتماعية، والثقافية والنفسية للمبحوثين ومواقفهم، وسلوكهم أو توقعاتهم، كما قد يستعمل للربط بين بعض خصوصيات الأفراد ومحيطهم الاجتماعي. ومن أهم مزايا هذه العملية الإحصائية

ضمانها، أكثر من غيرها، لمصادقية العملية التحليلية، وذلك بتقليلها من العوامل الذاتية والقيمية. ومع ذلك فلا يمكن تبرير اللجوء إلى السير الذاتية للاقتصار على التحليل الإحصائي فقط، إلا إذا كان الهدف معالجة مشاكل محددة. إن الشائع هو استعمال هذا المنهج مكملاً للمنهج البنائي أو تحليل المضمون.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المقاربات المنهجية ليست متعارضة بل قد تكون متكاملة، فالتحليل النمطي عادة ما يستعمل في المرحلة التمهيديّة من البحث لتصنيف مختلف المجموعات ضمن المسارات البيوغرافية وانطلاقاً من أي متغير مناسب للفروض النظرية. كما يمكن التأكد لاحقاً من أن العلاقة بين المتغيرات تختلف من مجموعة لأخرى، مما قد يؤدي بنا إلى تعديل أو إثراء فروض في اتجاه إتقان الصياغة المناسبة لكل مجموعة من المتغيرات، فنكون بذلك قد استعملنا مقاربتين منهجيتين أو أكثر (النمطية، التمثيلية و/أو البنائية). وقد يعتبر تحليل المضمون بديلاً سورياً في حين يعتبر المنهج البنائي أو التمثيلي أكثر انفتاحاً لاعتمادهما أكثر على بديهية الباحث ومهارته، ولكنهما يميزان بالسرعة والمباشرة مقابل المستوى الأعلى من المصادقية التي يتميز بها تحليل المضمون. ولذا، فقد يكون المنهج البنائي أكثر إفادة عندما يستعمل من طرف باحثين متمرسين وذوي معرفة كبيرة بكل من السير المعروضة والمشاكل النظرية المرتبطة بتحليلها.

يبقى أن نشير إلى أنه قد يلجأ إلى استعمال السير المتوازنة كمقاربة تكميلية في بحث ما. وفي هذه الحالة تكون فائدتها مزدوجة: فهي تستعمل من جهة في مرحلة الفروض، ومن جهة أخرى «بوصفه مراقباً كيفياً» في الدراسات الكمية عندما تقارن هذه السير بالنتائج المتحصل عليها بالطرق الصورية والكمية. كما أنها مفيدة جداً بوصفها وسيلة تمثيلية أو تشخيصية لكتابة التقارير النهائية للبحوث بغية تجنب الخطاب التجريدي للمحلل وإعطاء «قوة إضافية» للحجج والبراهين المقدمة. أما منهج السير المتقاطعة، فإنه يندرج ضمن رغبة تحقيق نظرة كلية ومصادقية علمية أكبر. ويمكن العمل على تحقيق هذين الهدفين عبر عملية استقصائية تأخذ بعين الاعتبار نسبة العروض الشخصية بمقارنة كل واحد منها بعروض أخرى، من داخل الوسط الاجتماعي نفسه. فلا يكتفي، مثلاً، بعرض شخصي هام حول مسيرة مهنية لعامل ما بل يقارن عرضه بعروض زوجته وولده الذي قد يكون يمارس المهنة نفسها (هنا متغيرا الجنس والجيل وقد يكون غيرهما في حالات أخرى): فالعرض الأول يقدم الهيكل الأصلي في حين يقدم العرضان الآخران الانسجام، والرأي الآخر، والتميز... فيثريان العرض الأول، ويبرزان العناصر الواقعية والتصورات الشخصية، لنحصل في الأخير على سيرة ذات

مراكز متعددة تتميز بعمق أبعد وموضوعية أكبر، وذلك في شكل تركيب بيوغرافي لا يعبر فقط عن شهادة حياتية مهنية بل عن توجه شبه واقعي وعميق لقطاع مهني واجتماعي بكامله.

كيفية صياغة السير الحياتية

إن الإقبال المتزايد على استعمال السير/ الذاتية في البحوث الأكاديمية يتطلب حداً أدنى من الإعداد والتنظيم لكيفية صياغتها ومعالجة موادها، فالهدف هو وضع خطة تتضمن مختلف المراحل المؤدية للصيغة السيرتية الأكثر كمالاً لضمان تطبيق المنهج البيوغرافي، ألا وهي السير الحياتية.

وتجب الإشارة إلى أن الملاحظات المذكورة حول المراحل الأولى من الاستبيان والتحليل تنسحب على أي نوع من أنواع البحوث التي تستعمل الوثائق الشخصية بوصفها قاعدة للمعرفة. وتتمثل أهم المراحل التي تتخلل عملية الصياغة في: المرحلة الأولى، ومرحلة البحث، ومرحلة التسجيل، والكتابة والصياغة، ومرحلة التحليل والتفسير ومرحلة العرض والنشر.

في المرحلة الأولى لا يعتبر الطابع الكيفي لهذا النوع من الدراسات عائقاً، على الرغم من كثرة الانتقادات الموجهة إليه وتحديدًا إلى صعوبة إعداد خطة بحثية دقيقة تتغلب على مشاكل التمثيل والصدق والثبات المرتبطة بالبحث. ففي هذه المرحلة الأولى يجب العمل على تغطية الأهداف التالية كحد أدنى: إعداد طرح نظري للعمل يفسر بوضوح ماهية الفروض الأولية للدراسة. التبرير المنهجي لأسباب اختيار المنهج البيوغرافي، والتحديد الدقيق لمجتمع الدراسة والتحليل (الجماعة المهنية، المهاجرة، الفئة العمرية....)، تفسير وتوضيح مقاييس اختيار المبحوثين الذين ستكتب سيرهم.

وفي مرحلة البحث الميداني، ونظراً لخصائص هذا النوع من الدراسات، فإن أهم مظهر تتميز به هو الاختيار الجيد للمبحوثين (ذوي السير المهمة والخصائص الذاتية المناسبة). قبل كل شيء يجب الإشارة إلى أنه لا يوجد وصف نموذجي آلي للمبحوث المثالي، لأن الأمر يرتبط بعلاقة شخصية وجها لوجه بين الباحث والمبحوث، المهم فيها وجود انسجام وتوافق بينهما. فالأمر يتعلق، إذن، بمسألة ذاتية جداً يقوم فيها الحدس والصبر والاستعداد الجيد للباحث بالدور الأكبر لضمان النجاح. ومع ذلك يمكن القيام بتقديرين مختلفين للموضوع يتمثلان في الاحترازين التاليين: الأول، أنه يجب التأكد من أن الشخص (أو الأشخاص) المختار يستجيب لنمط خاص وتمثيلي لمجتمع الدراسة، أي أن يكون مندمجاً في وسطه الاجتماعي وليس «وسيطاً» بين الباحث وهذا الوسط، وذلك لكي لا تغلب عليه النظرة الخارجية (التي قد تكون مهمة في المرحلة

الأولى سابقة الذكر). وهو الخطأ عينه الذي وقع فيه سابقاً معظم الأنثروبولوجيين الذين كانوا يجهلون اللغات المحلية ويلجأون إلى المترجمين بوصفهم وسطاء. وأما الاحتراز الثاني، فيخص البعد السوقي (اللوجيستيكي)، بمعنى أنه يجب العمل مع أشخاص لديهم الاستعداد والوقت الكافيان للتعامل معنا، قصة جيدة للعرض والقدرة على التعبير بوضوح.

وهناك أربع طرق أساسية للحصول على السير الذاتية (تراجم، مذكرات، مراسلات أو أي وثيقة شخصية أخرى)، تتمثل أولها في تحديد موقعها والحصول عليها. أما الطريق الثاني فيتمثل في «تكليف» شخص ما بكتابة أو تسجيل سيرته الذاتية بمفرده. ويبقى أن التقنية الميدانية الأكثر أصالة هي تلك التي تسمح للباحث بتحكم أكبر في الوضعية بمعطياتها وفي دوافع المبحوث، أي المقابلة البيوگرافية بدليلها والتي عادة ما تكون مفتوحة. وأما النوع الرابع فيتمثل في الاستبيان طويل المدى أو الملاحظة بالمشاركة.

فيما يخص القواعد العامة التي يجب اتباعها عند القيام بالمقابلات البيوگرافية، فإن معظم المختصين⁽¹¹⁾ يتفقون على ذكر سلسلة من القواعد اللازمة لاستبيانها، منها توفير الظروف المناسبة لضمان راحة المبحوث (الألفة، والوسط العائلي...)، والتحفيز الإيجابي للرغبة في الحديث بإبراز الأهمية العلمية والعملية لمساهمته، أو بالقول له مثلاً: «ألا تريد أن يعرف الغير الحقيقة عن جماعتك بدلاً من الأباطيل المنسوجة في الكتب حولكم؟» (Crane & Angrosino SD, 82). وفي هذه الحالة وغيرها، يجب عدم التكلّم إلا عند الضرورة لـ «سد الفراغات»، وإعادة الحديث إلى مجراه الأصلي أو إدراج طلبات الدقة والتوضيح، مع المحاولة المستمرة للمتوقع ضمن ترتيب زمني دقيق ومفصل لمختلف مراحل حياة المبحوث... لأن «المقاطعة تعني التثبيط» (Crane & Angrosini, SD, 84). (To interrupt is to discourage). كما أنه يجب تجنب الإفراط في توجيه المقابلة عن طريق أسئلة مغلفة ومفرطة في الدقة، تفرض وجهة نظر الباحث ولا تقسح في المجال أمام المبحوث للتعبير التلقائي. ولذا يفضل أن تكون كل الأسئلة مفتوحة وعامة ما أمكن ذلك إلا في حالة طلب التوضيحات والإضافات.

ومن الصيغ الجيدة التي ينصح بها عادة عند افتتاح كل مقابلة جديدة، المراجعة المشتركة للنص المطبوع للمقابلة السابقة، والتعليق عليه، وتكملة ومعالجة النقاط الغامضة أو المتناقضة فيه. ويعتبر هذا المدخل مفيداً جداً لتحسين ظروف استكمال العرض السابق. فمن المعروف أن أكثر المقابلات إشكالا هي أولها، فالتجربة الشخصية المتواضعة⁽¹²⁾ وجل التراث الأكاديمي (المعتمد عليه في هذه الورقة) يشيران إلى

ضرورة الحذر والصبر والتواضع مع توضيح أهدافنا بوصفنا باحثين والدور المنوط بالمبحوث. إن المفضل في مثل هذه الحالة الأولية هو الحصول على مخطط عام لسيرة المبحوث في شكل سرد عام لأهم مراحلها وضمن كل مرحلة الأكبر عدد ممكن من المعطيات الزمنية الدقيقة (تستعمل لاحقاً كنقاط مرجعية للتحكم في سرد أحداث أخرى)، ومن الشهادات الشخصية (من محيطه) المتعلق به. وبالطبع يفترض أن تكون كل مقابلة لاحقة تفصيلاً أو تعديلاً لهذا المخطط العام الذي يبقى النقطة المرجعية لها جميعاً. وفي هذا السياق ينصح «كلوكهن» الباحث بالتحكم في الوضع من خلال ثلاث أعين: عين على المحيط الثقافي والثانية على شخصية الإخباري والثالثة على تفاعله مع الآخرين (Crane & Angrosino, SD).

إن نجاح المقابلة البيوغرافية أو فشلها، الذي يقاس عادة بدرجة إشراك المبحوث وتجاوبه مع رغبتنا في توخي الصدق والاستيعاب، يخضع - وإلى حد كبير - لقدرتنا على إيجاد علاقة ود وثقة متبادلة مع المبحوث. ولذا يجب أن نتحلى بالصبر أمام أي شرود أو سكوت أو شكوك أو رفض صادر عن المبحوث للتعلم في أحداث أو ظروف غير مُرضية، واحترام هذه الرغبة وعدم التسرع لأننا قد نعود لبعضها لاحقاً في ظروف أفضل. ولكن البحث البيوغرافي ليس عبارة عن تجربة أحادية الجانب متمثلة في المبحوث فقط، بل إنه يقتضي إشراك الباحث مع المبحوث وظروفه. وهذا ليس فقط لإنجاح البحث بل كسلوك أخلاقي مهني يجعل من مرحلة الإنجاز وسيلة لعقد علاقات شخصية وتواصل منسجم وإيجابي.

مرحلة التسجيل والكتابة وصياغة السير الحياتية: تستعمل عادة في هذه المرحلة أية تقنية تسجيل سهلة التنقل والتسجيل للباحث والمبحوث معاً، توفر التسجيل الصوتي الفوري والواضح (أكثر من أربع ساعات أحياناً). وأما في ما يخص الكتابة فينصح باستعمال التقنيات المناسبة (Dictaphone...) للكتابة الحرفية، أو شبه الحرفية أو التقريبية للسيرة على الورق (حسب توخيها للأصالة أو الفهم والوضوح). ويفضل استعمال الكمبيوتر لأنه يسهل عملية تحضير مرحلة التحليل التالية، وذلك بتيسيره إنشاء عدة ملفات لمحتوى الاستبيان البيوغرافي تبعاً للمقاييس التالية: أ - ملف النسخة الأصلية: ويتضمن نسخاً حرفياً لكل المقابلات (محتوى وترتيباً) مرفقاً بالملاحظات الشخصية التي قد يثيرها التسجيل بملابساته المختلفة.

ب - ملف النسخة الكرونولوجية: ويتضمن نسخاً ترتيبياً للمعلومات حسب المراحل المتوالية لحياة المبحوث. وهذا التسجيل مهم ومفيد أثناء عملية الاستبيان نفسها. ج - ملف ثالث يخصص لسجل الأشخاص (أعضاء العائلة، والأصدقاء،

والجيران، وزملاء العمل أو الدراسة، الخ). وهو مهم ومفيد أيضا أثناء الاستبيان وعند التحليل. د - ملف سجل الموضوعات لتصنيف المعلومات إلى محاور أو فصول كبرى مثل: التنشئة الاجتماعية، والعمل، والحراك الاجتماعي، والاعتقادات والممارسات الدينية، والمشاركة في جمعيات، والانتماء السياسي...

التحليل والتفسير: وتعتبر هذه المرحلة أكثر المراحل التصاقا بخصائص المخطط العام للدراسة، وبعملية اختيار المبحوثين وبقدرة الباحث على تسيير الحوار، واكتشاف المؤشرات والمعلومات المناسبة لانسجام السيرة المعنية بالبحث. ولذا يصعب إعطاء قواعد عامة للتحليل والتفسير الخاصين بالسير الحياتية، ومع ذلك يمكن اقتراح ثلاثة أنواع من الاستكشافات التحليلية المرتبطة بما يقابلها من استعمالات متميزة للسير الحياتية: صياغة السير الحياتية بوصفها دراسة لحالات وحيدة، وتحليل السير الذاتية بمعالجات كيفية (تحليل المضمون خاصة) تستعرض النص، ومتغيراته، ومؤشراته ومختلف وحداته التصنيفية والتحليلية، والتحليل الكمي المعتمد على المادة البيوغرافية، لأن الجمع بين السير الحياتية والدراسات الإحصائية ممكن فعلا (انظر دراسة «بالان» Balan, 1974 حول السير الفردية في المجال المهني، والتربوي، والعائلي، والصحي ومجال الهجرة) (Munoz, 1992, 77-78).

أما فيما يخص الكيفية العملية لتحليل وبناء معطيات السير، فإنها ترتبط في جميع الحالات بالإشكالية العامة للبحث والمرتبطة بدورها بالتراث الاجتماعي المتخصص وبالتصورات المجتمعية للباحث. ولتوضيح الأمر نسوق هذا المثال الخاص ببحث أجري في كندا حول التغيرات الثقافية في مقاطعة «كيبك» (Québec) من خلال مجموعة من السير الذاتية: لقد أوحى موضوع فريق البحث بثلاث مقاربات تشخيصية لمجتمع الدراسة: الحراك، والفئات الاجتماعية والوعي التاريخي. ومن خلال هذه المفاهيم الثلاثة باشر فريق البحث وصف، مضمون السير وتصنيفها وتحليلها من خلال منظور علم اجتماع: «المراكز»، و«الجماعات»، و«التاريخ» (Gagnon, 1980, 98-99). وتعتبر هذه المفاهيم الثلاثة بمثابة الوحدات التحليلية في المعالجات الكيفية المستعملة لتحليل المضمون، ومعروف أن تراث الفكر الاجتماعي غني بمثل هذه المفاهيم التحليلية، وأن تبني بعضها دون الآخر يرجع عادة لطبيعة موضوع الدراسة والتوجه الفكري للباحثين.

عرض السير ونشرها: إن عرض السير الحياتية يختلف طبعا عن عرض السير الذاتية، وبخاصة منها تلك التي تستعمل بوصفها نقطة انطلاق ووسيلة تحليلية وليس كهدف رئيس للنشر. كما أن عرض الاثنين يختلف عن عروض الدراسات العلم اجتماعية الأخرى (الكيفية منها والكمية). والنماذج المستعملة بكثرة في العلوم الاجتماعية تقترب

من قريب أو بعيد من النموذج التالي: الخلفيات والمناقشات النظرية، وتحديد المفاهيم وعرض الفروض، وتحديد مجتمع البحث وعينة التحليل، وعرض تقنيات الاستبيان، ومادته، وتحليل مادته وتفسيرها، والخلاصة. إلا أن تقريراً من هذا النوع لا يولي أهمية كبيرة للبعد الشكلي أو لأسلوب النص، ما عدا، طبعاً، تحديد المفاهيم. في حين يختلف الأمر كلياً في حالة عرض السير الحياتية، التي تعتبر بحق «بناء نصياً معالجا» من طرف مختص يتقن جمع المادة وتحليلها وإعادة تركيبها وعرضها مع احترام ترتيبها الزمني والموضوعي والتزامه «الحرفي» بنوايا المبحوث ودوافعه.

ويتطلب عرض سيرة حياة للنشر، بخلاف معظم النصوص العلم اجتماعية الأخرى، إدراج تحليل للنص عن طريق هوامش، ومقدمات وملاحق. ومن أهم العناصر التي يجب أن تتضمنها عروض السير: أ - متن النص الذي قد يقتصر على السيرة الذاتية وحدها، أو يتضمن الشهادات المحيطية كذلك، كما أنه قد يتضمن السير المتوازية أو المتقاطعة التي سبق شرحها من قبل. ب - مقدمة تحليلية تهدف إلى التعريف بالخصائص العائلية والمهنية والاجتماعية المحيطة بالمسار الحياتي للمبحوث (مع التذكير هنا بأخلاقيات المهنة الضامنة لسرية المعلومات باستعمال أسماء مستعارة). ج - هوامش في أسفل الصفحات لتوضيح التعبيرات الغامضة والمشتبهة، د - معجم مصطلحات، وبخاصة إذا كانت السيرة مترجمة من لغات أجنبية. هـ - ملاحق لإدراج مواد تكميلية قد تساعد في فهم النص. ولا بد أن نشير إلى أن أفضل طريقة للاستفادة من طرق كتابة السير ونشرها تتمثل في الإطلاع على بعض من النماذج المنجزة.

خاتمة

نخصص خاتمة هذا البحث لطرح آفاق تطبيقات المنهج البيوجرافي، بالتركيز على بعض التساؤلات النظرية الحديثة التي تثار حوله وأهم المشاكل المنهجية التي تواجه محاولات تطبيقه، وذلك في شكل مؤشرات متتالية.

يعتبر «الانسجام» (Coherence) من أهم المواضيع المركزية في السير الذاتية والحياتية، ولذا فإن مادة هذه الأخيرة (بما تتضمنه من أحداث وآراء وتبريرات عقلية وأحاسيس ورسائل وصور ووثائق ومقابلات ويوميات... الخ) عادة ما تكون مترابطة وتخضع في الغالب لتسلسل زمني معين أو لأي نظام منطقي آخر يعطي للسير معناها العام وانسجامها الداخلي. ولكن هذا الانسجام قد يُبتدع (من طرف الباحث أو المبحوث) ولا يعكس واقع سيرة الشخص المبحوث، إلا أنه يعد ضرورة ثقافية، واجتماعية وفردية. وبالتالي، فإنها قد تكون نموذجية ومنمطة ولكنها ليست دائماً هي الأهم أو الأكثر صواباً. وقد لا يكون ممثلاً جيداً للمجموعة الثقافية التي ينتمي إليها. ومن المعروف أن لكل ثقافة تراجم حياتية تعتبر روايات نموذجية مؤثرة.

فالثقافة «الغربية» تتضمن وتدعو إلى هذه النماذج التي تشمل، فضلا عن الأبطال المحليين (جغرافياً أو ثقافياً)، شخصيات روائية وقصصية صيبانية (ثليجة والأقزام السبعة، بيتر بان، أليس في بلد العجائب...) و«نجوم» مشكلين للثقافة الحالية (من عوالم السينما، والتلفزة، والغناء، والرياضة والسياسة) عن طريق القوة الخارقة لوسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة، وذلك مقابل نماذج أخرى للسيرة وذاكرة ثقافية مغايرة (عندنا مثلاً: حاتم الطائي، والخنساء، وصلاح الدين الأيوبي، والأمير عبدالقادر، وعلاء الدين...)، ومن ثم وجب الأخذ بعين الاعتبار الهيمنة الثقافية الغربية والخصوصيات الثقافية الأخرى، مما قد يصعب من مهمة عالم الاجتماع عند تفصيله لما يقال في السير وما حدث فعلاً وعلاقته بمختلف النماذج الثقافية المهيمنة والخاصة.

بما أن الانسجام ليس ضرورة اجتماعية وثقافية فقط بل مطلباً فردياً أيضاً، فإن الأشخاص الذين يروون حياتهم يستبطنون معيار الانسجام الحياتي وإعادة الاعتبار الأخلاقي الذاتي بحيث يكون تسلسل الأحداث مناسباً وكذا مظهرهم الشخصي. ومن طرق التأكد من هذا الانسجام التقويم الإيجابي لمسار حياتهم في علاقته بالقواعد الأخلاقية (شعبية كانت أو مقننة) التي يرغبون في الاحتكام إليها، وعند الشك فيها أو جهلها، تستبدل بها مرجعيات أخرى مثل: الحس العام، وذوق المبحوث أو شخصيته، مما قد يؤدي بالباحث إلى اكتشاف نموذج خيالي بدلاً من الحقيقي. وكل ذلك يطرح بالفعل تساؤلات نظرية عدة.

من جهة أخرى، فإن السير/الذاتية تتكون من سلسلة من الأحداث البارزة أو الفاعلة في مسار حياة ما. ومعلوم أنه ليس من الواضح اكتشافها ولا تحديد أيها أكثر أهلية لذلك. فهذه الأحداث، المهمة بالنسبة لضبط المسار العام للسيرة وأهم محطاتها، قد تكون معبرة فعلاً عن أحداث واقعية، كبيرة صغيرة، مفرحة مزعجة، مستترة (بسبب الخجل أو النسيان)، كما قد تكون مجرد تشخيص لمشاعر المعني بالأمر، مما يجعل التحليل المنهجي الخاص بعزل هذه المؤشرات وتحليلها صعباً جداً.

يرى «دي ميغال» (De Miguel, 1996, 40-50) أنه يمكن التفرقة نظرياً بين السير بوصفها «مرايا» ذاتية تعكس التعبير الذاتي لصاحبها ولا علاقة لها بأي تمثيل جماعي بل هي أشبه ما تكون بقصص التحليل النفسي، والسير من حيث هي «نوافذ» تسمح بالتأمل في الحياة الواقعية وتهتم بمواضيع اجتماعية أو سياسية معاصرة، أي عبارة عن نوافذ مفتوحة على ما يجري في العالم.

إن السير/الذاتية «المرآتية» عادة ما تكون مؤقتة ومتناقضة ونسبية ومركزة

على الأنا ومتذبذبة وتتغلب فيها المشاعر على الوقائع. فهي تهتم أكثر بالتحليل الذاتي. ومع ذلك فإن بعض هذه «المرايا» قد تتحول إلى «نماذج»، وهو ما يفسر شهرة بعضها وتحوله إلى سير كلاسيكية مرجعية في الغرب. ولكن في الحالتين - المرايا والنوافذ - فإن أهمية السير الذاتية لا تكمن في قصصها الخاصة المروية بقدر ما تكمن في الاستكشاف الاجتماعي المعبر عنه بكلمات. إن ترجمة الواقع الاجتماعي «الخارجي» بالكلمات ليس مهمة فردية بل مشكل صوري ومنهجي معقد. فالمهم إذن هو هل السير تستعمل منهج استكشاف الواقع الاجتماعي محاولة تفسير المجتمع وفهمه أو منهج التعبير الذاتي، مع أن الملاحظ أن بعضاً منها يستعمل الاثنين معا ما يزيد من تعقيد مهمة الباحث.

فضلا عن هذه التفرقة النظرية بين «المرايا والنوافذ» فإنه يمكن ملاحظة أن لكل شخص نوعين من الحياة: السطحية (المعلن عنها) والعميقة (الحياة الداخلية بمشاعرها وأحاسيسها وعقدها وتناقضاتها...). وبالطبع فإن الأفضل بالنسبة لعالم الاجتماع هو الجمع بين الحياتين بل المقارنة بينهما، وهو أمر صعب للغاية. كما يمكن التمييز، عند تحليل السير الذاتية والحياتية، بين الحياة الحقيقية المعاشة، والحياة المروية (مكتوبة أو مسجلة) والحياة المقروءة، أي بين ثلاثة مستويات حياتية قد تكون غير منسجمة بل متناقضة أحيانا، وبخاصة بين النوعين الأول والآخر، مما يزيد صعوبة التعامل معها.

هناك توجه مهم عند المؤرخين وعلماء السياسة ومحللي العلم والفنون نحو إنتاج سير أشخاص «مهمين»، وأعيان، وأشراف، ونبلاء، ومسؤولين، وجنرالات. وفي المقابل يلاحظ عند علماء الاجتماع في الغرب ميل كبير نحو إنتاج سير الفقراء، والمنحرفين والمهمشين. لكننا نفتقد، عادة، سير الأشخاص العاديين المندمجين والذين لا يعيشون على هامش المجتمع، أي ممثلي ما يسمى بالطبقة الوسطى، التي لها شأن كبير عند مستعملي الاستبيان في علم الاجتماع الكمي ولكنها لا تكاد تظهر في الدراسات الكيفية وخاصة البيوغرافية منها، التي تفضل أن يكون صاحب السيرة منحرفا، مهما، مجرما، زانية... حتى لا يفقد قيمته البحثية ويدرج ضمن أدبياتها: (Chic أو Stanley) كمنحرفين، (Dora) كهستيرية، (Jane أو Agnes) كشاذين جنسياً، (J.S. أو Wladeck) كمهاجرين، (Pierre) بالنسبة لقتلة أحد أفراد عائلتهم، الخ (de Miguel, 1996, 59). وهذا يطرح مشكلة القيمة المرجعية والاعتبارية لمثل هذه السير، وبخاصة في مرجعيتنا الحضارية التي توحى بالأهمية العلمية والإصلاحية للتجارب الإنسانية والسير الذاتية، موضوع هذه الدراسات الكيفية، ولعلم الاجتماع عموماً؛ وذلك بغية الاستفادة المعرفية والمنهجية، فنتجنب مآسيها ونجدد نجاحاتها متجنبين العمل - منهجياً أو معرفياً - على إشاعة

فاحشتها، سواء أكان أصحابها نبلاء أم فقراء أو منحرفين أو أشخاصاً عاديين، آخذين بعين الاعتبار - بوصفهم باحثين - افتراض وجود أهداف نظرية نرغب في اكتشافها وتحليلها وتفسيرها وفهمها. فالمهم إذن هو «كيف» و«لماذا» أكثر من «من».

إن بعض السير تقرأ باعتبارها روايات أو قصص تجمع بين الفن والعلم والأدب والتاريخ والتحليل السوسيولوجي، ومن أمثلة ذلك «مذكرات شاهد القرن (الطفل/ الطالب)»، التي يروي فيها مالك بن نبي حياته في إطار سياق تحليل تاريخي وتنظيري عام ينطلق من الواقع الاجتماعي «القسنطيني» ليمر بمختلف محطات حياته داخل الجزائر وخارجها. وبالطبع، فإن المستوى التنظيري للسير/ الذاتية متفاوت من حيث القوة والضعف، ما قد يضطر القارئ أو الباحث إلى درجات متفاوتة من التنظير. ومعروف كذلك أن التنظير يحتاج إلى مستوى معين من التجريد، المهني أو العفوي، فالأمر يتعلق بربط بنية المجتمع والعمليات المهيكله لها بالسير الذاتية.

لقد سبق وأن أشرنا إلى أن الاهتمام الأكاديمي بالسير/ الذاتية نتج في بدايته عن اهتمام نظري واضح بأعمال مدرسة شيكاغو التي كانت تهدف إلى المزج بين النظرية والمنهج ومن منظور تفاعلي، تحول في ما بعد إلى ما يعرف نظرياً بـ «التفاعلية الرمزية». والمشكل المطروح ليس مناقشة قيمة وجهة نظر هذا التوجه بقدر ما هو يخص صعوبة الربط بين معطيات السير/ الذاتية بالبناءات التحليلية المحددة والنظريات الجاهزة، وذلك على الرغم من الإقرار بإسهامات كثير منها في تقدم المعرفة النظرية.

هناك نوع من السير الحياتية، وبخاصة منها المتعددة (المتوازية والمتقاطعة)، التي تغلب عليها ذاتية الباحث وتأويلاته لأقوال المستجوبين بغية تشخيص نظري ما. وهذا يزيد من صعوبة عملية التمييز بين أقوال المعني بالأمر وآراء الباحث، وبخاصة إذا علمنا أن تنظيرات المبحوث أهم من تنظيرات الباحث في مثل هذه الدراسات الكيفية.

إن السير/ الذاتية لا تصلح فقط لتحليل العالم الخارجي (الواقع الاجتماعي) بل لتفسير وتحليل الوثائق الشخصية كنصوص، ومن ثم فهي تتحول إلى خطاب ذي أهمية تاريخية وثقافية محددة طيعة للتحليل النصي بعيد نسبياً عن أي علاقة مباشرة بالحياة الواقعية المروية وببطلها. فهدف البحث قد يكون، إذن، النص نفسه مشخفاً لنظرية ما، مثل ما عمل (Foucault) في مؤلفه (Pierre Rivière) من تحليل الخطاب وعلاقات القوة والسيطرة بداخله (de Miguel, 1996, 57). كما أنه يمكن طرح مسألة أفضلية أحد التحليلين أو الجمع بينهما.

إذا كان يفترض في الباحث - كما ذكرنا - عدم الإفراط في إساءة الظن

بمصادقية رواية المبحوث، فإن المطلوب منه أيضا عدم تقديس روايته لأنه قد يغالط الباحث أو يكذب عليه، كما أن إطالة عملية إنجاز السيرة نفسها (عدة أشهر مثلا) قد تتسبب في تكرار عرض بعض هذه التجارب بكلمات أو روايات مختلفة، مما يتطلب المخاطرة باختيار تعسفي (لا يخلو عادة من الخلفيات الأيديولوجية والأحكام الثقافية المسبقة) أي الروايات أقرب إلى الحقيقة. وإذا تأكد للباحث أن المبحوث يكذب عليه أو يخفي عنه بعضاً من الأشياء، فإن بعض الدارسين (Garfinkel, 1967; De miguel, 1996) يجيز ذلك، وهو ما لا أستسيغه علمياً (لأن الكذب قد يغير من منحى السيرة أصلاً) ولا أخلاقياً طبعاً، باستثناء احترام حياة المبحوث الخاصة.

هناك مشكل منهجي آخر يتمثل في كون بطل السيرة قد يتعدد مظهره (في صيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب) مما قد يؤدي إلى ازدواجية شخصيته: فقد يحكي في صيغة المتكلم عندما يناسبه ذلك وفي صيغة الغائب ليصحح أو يحكم أخلاقياً على بعض من تصرفاته الماضية (إعادة للاعتبار الشخصي) وعندها يخفي الشخص الحقيقي وتبقى كلماته، والكلمات - كما هو معروف - من الصعب جداً أن يصدق تعبيرها عن بعض الأشياء: الآلام والمخاوف والألوان والروائح والمشاهد... نعم، فالأمر يخضع لذكاء الراوي ومهارته اللغوية في نقل تجاربه، ومع ذلك يبقى من المؤكد في رأينا أن السيرة الحياتية الكاملة والشاملة لا يمكن ترجمتها في ملفات (وبخاصة المكتوبة منها، لأن الاتصال الشفوي أصدق تعبيراً).

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن المنهج البيوغرافي لا يعمل على إصلاح الحياة الفردية والمنحرفة للأشخاص بقدر ما يعمل على إعطاء معنى ما للعمليات الاجتماعية، وتحليل البناءات الاجتماعية وتصور العمليات الرابطة بين التجارب الفردية والواقع التاريخي والثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي. ومع ذلك فالملاحظ أن بعض السير الفردية تخلصت من قميصها الفردي والأكاديمي لتكتسح قلوب عامة الناس وعقولهم باكتسابها شهرة كبيرة، بحيث أصبح لها تأثير كبير على حياة الملايين من البشر ومن المنتمين لثقافات مختلفة، فطبعها بسمات ثقافته الأصلية، بعض منها إنساني معقول وبعضها الآخر خاص وشاذ. وللأسف الشديد، فإن دائرتنا الثقافية في موقع المستقبل وليس المرسل، وهو ما ندعو لتجاوزه بإعداد المزيد من السير الذاتية المشخصة لمختلف أبعاد مجالنا الثقافي، لإصلاح الذات والتثاقف مع الغير.

الهوامش

- (1) من أمثلة ذلك كتاب: «مالك بن نبي»: مذكرات شاهد القرن: 1969، (Geyerbend 1995). Killing the time.
- (2) التفاعلية الرمزية: Denzin في أميركا، البنيوية: Bertaux في فرنسا، الماركسية السارتية: Ferrarrotti - في إيطاليا - الإمبريقية: Kemeny, Karpati، في المجر.
- (3) انظر (Plummer, 1983, Belensky, 1986, Stanley, 1992, Evans, 1993, Linde, 1993, Gilmore, 1994).

- (4) ولمزيد من التفصيل الاصطلاحي، تجدر الإشارة إلى بعض التصنيفات الخاصة بأهم أنواع هذا المنهج، أوله أقامه أحد منظري التيار المنهجي الكيفي (Plummer) عام 1989 وقد ضمنه تسعة أصناف، تمثل أهمها في: السير الذاتية واليوميات والمجموعات الرسائية والصور والأفلام والتاريخ الشفوي. وأما التصنيف الثاني - وهو ما أفضله لبطاطته ومحوريته التصنيفية: شخصي / غير شخصي - فهو للأسباني (Muñoz 1992) الذي ضمنه قسمين: الوثائق الشخصية (السير الذاتية، اليوميات الشخصية، المراسلات، الصور، الأفلام أو أي تسجيل آخر، الأشياء الشخصية) والسجلات البيوغرافية المحصل عليها عن طريق الاستبيان (السير الحياتية: الأحادية المتقاطعة والمتوازية، السير الذاتية المخضعة للتحليل الكيفي والكمي، السير المقارنة) (Muñoz, 1992, 14).
- (5) إن المنهج البيوغرافي كما تصورته وطورته هذه المدرسة اختفى من الساحة السوسولوجية خلال الأربعينيات لتحمل شعلته الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولقد عاد إلى الساحة في الستينيات ولكن بطابع مختلف تميز بالراديكالية، الهامشية والدفاعية. وإذا استثنينا بولونيا، فإن الاهتمام بالمنهج البيوغرافي في باقي أوروبا كان محدوداً رغم ظهور بعض الأعمال البريطانية أواخر العشرينيات حول «انحراف الأحداث وفقر المدن والشيخوخة والتجارب المهنية» (Fraser, 1970; Seabrook, 1967-1973; Parker, 1962-1969; Bulmer, 1978, Blythe, 1979) وبروز أعمال الزوجين الفرنسيين (Bertaux, 1980, 1981)، وأعمال الإيطالي (Ferrarotti, 1981-1987). وأما في أميركا فإن المواضيع المعالجة (مع قلة مقارنة مع فترة الثلاثينيات) لم تختلف كثيراً عن الأوروبية (Muñoz, 1992, 37-40).
- (6) ينتمي معظمها إلى مدارس فكرية مختلفة (التفاعلية الرمزية، والماركسية، والبنوية، والإمبيريقية، ونظرية الأدوار...) وإلى تخصصات مختلفة (الأنثروبولوجيا والتاريخ الاجتماعي وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس التاريخي...) وتعالج مواضيع نظرية مختلفة (القيم والصورة الذاتية والواقع المعيشي وصراع الأدوار والتاريخ النفسي ومسارات حياتية...) وفي أوساط مختلفة (الفلاحين والعمال الموسمين والحرفيين والموظفين والنخب والمنحرفين...).
- (7) لقد استعرض «كلوكهن» التطور التاريخي لهذا النوع من البحث مشيراً إلى أنه بدأ بعمل «رأندرسون» (1825): «مذكرات هندية أميركية من قبيلة شيروكي»، وأن كل أعمال القرن 19 تمثل مرحلة «ما قبل الاحتراف أو التخصص». بينما بدأ اهتمام المتخصصين بـ «الظاهرة البيوغرافية» حوالي عام 1920 بقيادة «Radin» (1913, 1920, 1926)، ولكنهم مع ذلك لم يتجاوزوا حدود المعالجة السطحية لظاهرة الثقافة والشخصية الهندية الأميركية. حوالي عام 1940 نشرت الأعمال الكلاسيكية الثلاث (Dyk 1938, Simmons 1942) التي أوضحت بعض الشيء المعالم المنهجية الضرورية للعمل الإثنوغرافي (المنطلقات النظرية، وعدم اللجوء إلى مترجم، والاهتمام بالإطار الاجتماعي...) برغم سطحيته وقلة تمثيليتها حسب «كلوكهن» (1945, 102-193). تلتها أعمال بارزة، أهمها: Kandiner 1949; Caudill 1953; Pozas 1962, Lewis 1961 (انظر: Muñoz 1992, 16-25).
- (8) انظر: Sutherland, 1937; Houle, 1979; Catani, 1981; Luchterland, 1981.
- (9) انظر: Bertaux, 1980; Elegoet, 1980; Camargo, 1981; Mauger & Fossé-Poliak, 1979.
- (10) انظر: Lewis, 1963; Sayad, 1979; Hankis, 1981.
- (11) تعتبر اقتراحات «كلوكهن» (1945) قاعدة جل التراث المتخصص الذي كتب حول ضوابطها المنهجية.
- (12) من خلال الدراسات الميدانية التي أشرفت عليها في الجامعة، وقد استعنا في آخرها: «الصحفيون والديمقراطية في الجزائر» (1998) بالمنهج البيوغرافي: تقنية السير المتعددة (وهو بحث غير منشور).

المصادر

- فضيل دليو (1988). «علم الاجتماع الغربي وإشكالية ثنائياته النظرية»، إسلامية المعرفة، (11).
- فضيل دليو (إشراف). الصحفيون والديمقراطية في الجزائر: دراسة بيوغرافية لثلاثة صحفيين بقسنطينة 1988، (بحث غير منشور).
- مالك بن نبي (1969). مذكرات شاهد القرن (الجزء الأول والثاني: الطفل/الطالب)، بيروت.

- Allport, G. (1965). *Letters from Jenny*. London: Harcourt Brace Jovanovich.
- Balan, J. (1974). *Las Historias de Vida en Ciencias Sociales. Teoria y Técnica*. Buenos Aires: Nueva Vision.
- Banuelos C. (1994). *Perspectivas en Sociología del Cuerpo*. R.E.I.S., N° 68, Madrid.
- Bastide, R. et al (1986). *Women's Way of Knowing. The Development of Self, Voice and Mind*. New York: Basic Books.
- Belensky, M et al. (1986). *Woman's Way of knowing. The Development of Self, Voice and Mind*. New York: Basic Books.
- Bertaux, D. & Bertaux - Wiame (1980). *Enquête sur la Boulangerie Artisanale en France*. Paris: Cordes.
- Bertaux, D. (1980). "L'approche Biographique. Sa Validité Méthodologique, Ses Potentialités" *Cahiers Internationaux de Sociologie*. LXIX, Paris.
- Bertaux, D. ed. (1981). *Biography and Society*. Beverly Hills: Sage.
- Blummer, H. (1939). *Critiques of research in the Social. an Appraisal of Thomas and Znanieki's "The polish peasant"*. New York: Social Science Research Council.
- Crane, J. & Angrosino M. (S.D.). *Field Projects in Anthropology*. 2 ed. Illinois: Waveland Press.
- de Miquel, J. (1996). *Auto/biografias*. Madrid: C.I.S.
- Denzin, N. (1989). *Interpretive Biography*. California: Sage.
- Evans, M. (1993). "Reading Lives: How the Personal Might be Social". *Sociology*. 27 (1).
- Ferrarrotti, F. (1989). *Breve Nota sobre Historia, Biografia, Privacy. Historia y fuente oral*, n°2.
- Ferrarrotti, F. (1980). "Les Biographies comme Instrument Analytique et Interprétatif". *Cahiers Internationaux de Sociologie*. LXIX, Paris.
- Feyerabend, P. (1995). *Killing the time*. Chicago: University of Chicago Press.
- Gagnon, N. (1980). "Données autobiographiques et praxis culturelle". *Cahiers Internationaux de Sociologie*. LXIX, Paris.
- Garfinkel, H. (1976). *Studies in Ethnomethodology*. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall.
- Gilmore, L. (1994). *Autobiographics: A Feminist Theory of Women's Self-representation*. Itaca: Cornell University Press.
- Kerpati, Z. (1974). "The Methodological Use of the Life History Approach in Hungarian Survey on Mobility and Urbanization". In Bertaux, D. ed. *Biography and Society*.

- Kemeney, I. (1979). "Poverty in Hungary". Information sur les Sciences Sociales, 18-2, Paris.
- Kluckhohn, C. (1945). "The personal Document in Anthropological Science". In gottschalk et al. The Use of Personel Document in History, Anthropology and Sociology. New York: Social Science Research Council, Bulletin.
- Lewis, O. (1971). Los Hijos de Sánchez, México, Mortiz (1st. ed.: Children of Sanchez. New York: Basic Books, 1961).
- Linde, C. (1993). Life Stories: the Creation of Coherence. New York: Oxford University Press.
- Morin, F. (1980). "Pratiques Anthropologiques et Histoires de Vie: Cahiers Internationaux de Sociologie. LXIX, Paris.
- Plummer, K. (1983). Documents of Life: An Introduction to the Problems and Literature of a Humanistic method. London: Unwin Hyman.
- Poirier, J. & Clapier - Valladon, S. (1980). "Le Concept d'Ethnobiographie et les Récits de Vie Croisés". Cahiers Internationaux de Sociologie LXIX, Paris.
- Munoz, J. (1992). El Método Biográfico. Madrid: C.I.S.
- Stanley, L. (1992). The Theory and Practice of Feminist Auto/biography. Manchester: Manchester University Press.
- Shaw, C. (1966). The Jack Roller: A Delinquent Boy's Own Story. Chicago: University Chicago Press.
- Stouffer, S. (1930). An Experimental Comparison of Statiscal and Case History Method of Attitude Research. Doc. thesis, Chicago: University of Chicago.
- Szczepanski, J. (1978). "El método biográfico". Papers: Revista de Sociología 10, Madrid.
- Watson, L. (1976). "Understanding a Life History as a Subjective Document: Hermeneutical and Phenomenological Perspective". Ethos (4):1.

